بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ووحد به العرب بعد التفرقة، ولمّ شعثهم بعد التمزق، وصرخ في العالم صرخة صدق ملأ صداها الخافقين(1)، داعياً إلى وحدة بني الإنسان.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله القائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: 13] والقائل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد: فإنه ما من دعوة دعي إليها الناس إلا كانت أساساً وغراساً لدعوات شتى لاحقة، وذلك لأن المتلقين مختلفون بمداركهم وأفهامهم. وهذه حكمة الله في خلقه؛ لأن بنيان الحياة الدنيا ودوامها إلى أجل يشاءه الله عز وجل جعله الباري جلّت حكمته مقترناً بها التباين والتفاوت في مدارك الناس. يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: 40] ويقول عز وجل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: 118] إذن؛ فالاختلاف حكمة الله في خلقه، ولا مفرّ منه مع اختلاف الفطر والعقول؛ صحيح أن «كل مولود يولد على الفطرة» كما ورد في حديث الرسول ﷺ، لكن استسلام الإنسان - عندما يكبر - للعقل بلا

---

(1) الخفقان: الاضطراب. والخافقان أفقا المشرق والمغرب لأن الليل والنهار يخفقان فيهما.

هدي إلهي نتيجة طبيعة التفكير وتسرب الأفكار الدخيلة إليه، يحول دون الوصول إلى المراد من الأحكام الإلهية. والإنسان في طور قصوره لا يدرك ما يصل إليه إلا بالحسّ، ولا يعلم إلا المحسوس، ولا يزال كذلك حتى تكشف له تجارب السنين والحوادث فيأتي ليعلل وليفهم سرّ ما حفظه، عند ذلك يأتي دور التكليف المدعوم بالرسالة السماوية لتنتفي حينئذ الحجج والذرائع.

والإسلام كما في صريح كثير من الآيات والأحاديث النبوية يحث على التعقل والتدبر، ليصل بالإنسان إلى درجة الاطمئنان، وليواكب التطور الحاصل نتيجة تقادم الزمن. والتطور في الزمن يتعايش معه المسلم العاقل بتطور في فهمه المستند إلى الثوابت، وهذا التطور المحمود هو نتيجة الاختلاف المفهوم من قوله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة».

والمسلمون لم يكونوا في عهد الرسول ﷺ مدفوعين للاختلاف؛ فهم حديثو عهد بالنص السماوي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أنزل عليه التشريع واحد منهم ويعيش بينهم، لا يدع صغيرة ولا كبيرة يسأل عنها إلا ويجيب بوحي إلهي، ومن آمن بالله رباً، وبنبيه محمد رسولاً وبالقرآن كتاباً من الله منزلاً وحياً على نبيه محمد ﷺ، لا بد وأن يُعمّر قلبه بالإيمان والتصديق واليقين وحسن الظن.

لكن بعد أن فقد المسلمون نبيهم ومرشدهم ﷺ بدأت أسباب الاختلاف تدبّ إلى الجسم الإسلامي؛ حيث فقدوا من نزل في حقّه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3-4] وفقدوا من أجمعت الأمة عليه؛ كيف لا، وهو صاحب الرسالة، وهو الصادق الأمين من قبل أن يبعث، فكيف به بعد أن أصبح رسول الإله وحبيبه، لقد كانوا يفدونه بأغلى ما عندهم، وهو ﷺ تبوأ هذه المكانة في قلوب المسلمين بجدارة واستحقاق بما تمثله من أخلاق عالية رفيعة، وإخلاص وتفان وتواضع مع الناس بمختلف شرائحهم وانتماءاتهم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

إذن؛ بدأت عوامل الاختلاف منذ وفاة الرسول ﷺ بدءاً من خلافته، وقد بالغ البعض حين جعل من موقف سيدنا عمر بن الخطاب حين أعلن الحرب على من يدعي أن النبي قد مات بداية الخلاف، وبالطبع فإن موقفه هذا - ﷺ - لا يندرج تحت الاختلاف، إنما هو نتيجة تعلق وحب شديدين للنبي ﷺ بدليل أنه ما إن سمع من أبي بكر الصديق ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144] حتى اطمأن وهدأ. فربنا عز وجل من تمام رحمته وعدله وكماله أن ترك العباد على المحجة البيضاء ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] والنبي ﷺ يقول: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً؛ كتاب الله وسنتي» إذن؛ لم يقطع الله عز وجل عن الناس الواسطة المباشرة لتبليغهم إلا بعد أن أوصلهم إلى حالٍ، الحلال فيها بيّن والحرام بيّن.

وقد أوجد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بين المسلمين مناخاً للخلاف فكان أن اختلفوا على من سيخلفه؛ فالأنصار يرون أنهم أحق الناس بها فهم الذين ناصروا الرسول بعد أن تمالأت عليه كفار قريش. وأما المهاجرون فرأوا لأنفسهم أحقية بالخلافة، فهم قومه وعشيرته وأولى الناس به. وفريق رأى أن تكون الخلافة في قرابة النبي ﷺ واستندوا بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75] وأخيراً انتصر دعاة وحدة المسلمين وخمدت الفتنة وبويع أبو بكر الصديق وبعده عمر بن الخطاب وبعده عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين. وكان لسيدنا علي بن أبي طالب ﷺ الدور الكبير في إخماد الفتنة بتأثيره على بني هاشم الذين كانوا يرونه أولى بالخلافة من غيره.

ولكن استغلال بني أمية لخلافة عثمان استغلالاً سيئاً أشعل نار الفتنة من جديد

ليصلى بها المسلمون إلى اليوم. وكان من أقسى تبعات هذه الفتنة الحيف الكبير الذي لحق بآل بيت الرسول ﷺ وبالمسلمين جميعاً. وكان من تبعاتها أيضاً نشوء فرق وحركات (الخوارج) أضعفت كثرتها كلمة المسلمين واستغلها المغرضون من اليهود وغيرهم لمآربهم الدفينة.

وعندما بدأت رقعة دولة الإسلام تتسع، وكثر رجاله، وبدأ اختلاط المسلمين بالأعاجم نتيجة الفتوحات، ودخل الإسلام من كان مشبعاً بآراء فلسفية بعيدة عن طبيعة التفكير عند العرب، بدأت هذه الآراء تتسرب إلى أذهان المسلمين، وبدخول كثير من أهل الكتاب في الإسلام دخلت الإسرائيليات أيضاً إلى المجتمع الإسلامي، وبدأ الناس يتداولون مواضيع لاعهد لهم بها مثل: بدء الخليفة، والقصص الملفقة على الأنبياء صلى الله عليهم أجمعين، وغيرها من المواضيع، كل هذه العوامل أدت إلى نشوء آراء ومذاهب تناولت مسائل العقيدة، وكانت القدرية أول فرقة خرجت على المسلمين ودعا إليها معبد الجهني، ثم ظهرت الجبرية على يد جهم بن صفوان، وكانت هذه الدعوة ردّ فعل على الدعوة الأولى، وأخذ المسلمون يخوضون بآيات الله تفسيراً وتأويلاً، كلٌّ ينتصر بالقرآن لمذهبه وأخذت مسألة الصفات حيزاً هاماً من اهتمام المسلمين، وتفرع عنها مشكلة الاستواء، ومشكلة خلق القرآن، وقد استنفذ العلماء جلّ أوقاتهم في التناظر والاستدلال في هذه المسائل، وراح ضحية القول بخلق القرآن أناس كثيرون، ولم يسلم الإمام أحمد بن حنبل من ذلك. وقد برزت المعتزلة على يد مؤسسها واصل بن عطاء، وقد جعلوا العقل رائدهم، وعكفوا على دراسة نظريات الفلاسفة وسخروها لدارسة عقيدتهم، وللتصدي لمن لا يؤمنون بالدليل النقلي كالمانوية وغيرهم من الملحدين. ثم جاء بعد المعتزلة الأشعرية نسبة لأبي الحسن الأشعري، والماتريدية نسبة لأبي منصور الماتريدي، وكانت غاية كلٍّ منهما الردّ على المعتزلة وغيرهم، واتخذ الفريقان مذهباً وسطاً حمل لقب أهل السنة، ثم مالبث أن

شمل هذا اللقب أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة وغيرهم.

وقد كان مصير كثير من الفرق الاختفاء أو الانطواء على نفسها، نتيجة تصدي الحكّام لها من جهة، وعدم وجود المناخ الملائم لدعوتها من جهة أخرى؛ خاصة وأن كثيراً منها بلغت ما بلغته من التطرّف والغلوّ. ويكاد لا يخلو كلّ عصر من ظهور دعوات شاذة يلفظها المجتمع الإسلامي كالدعوة البهائية والبابية والقاديانية. واليوم نرى المذاهب السائدة في الدول الإسلامية هي أهل السنة بمذاهبهم الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ومذهب الشيعة الإمامية بفرقها العديدة: كالجعفرية والموسوية والزيدية والإسماعيلية وغيرهم وهناك مذهب الأباضية المنتشر في عُمان وزنجبار، وما يجمع هذه المذاهب أكثر مما يفرقها، فكلهم ينادون بالتوحيد، وبنبوة محمد ﷺ وبالقرآن كتاباً منزلاً على محمد ﷺ وربنا عز وجل أمرنا أن ندعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: 64].

فكيف ونحن أبناء الملة الواحدة؟

أليس حرياً بنا أن نتحد وأن نجتاز تلك الخلافات الجزئية، وأن لا نحمّل بعضنا البعض تبعات ما اقترفه الأسلاف؟ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 134].

نسأل الله عز وجل أن يكلل جهود المخلصين في هذا الاتجاه بالتوفيق وأن يهدينا جميعاً إلى الصراط المستقيم، إنه تعالى سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد حمزة